



إذا صح اعتبار ما ورد في خطاب وزير الخارجية الأمريكية، ريكس تيلرسون، استراتيجية جديدة لمساعدة السوريين على إنهاء مأساتهم، فما على هؤلاء سوى تجهيز أنفسهم لنكبة مدينة ط沃ى، في ثناياها، ما بقي سالماً منهم، قبل أن تنضج ثمار تلك الإستراتيجية .

صحيح أن خطاب تيلرسون جاء على ذكر رحيل الأسد، وهو الهدف العتيد للثورة السورية، كما صرخ بوضوح عن محاربة التفозд الإيراني، وكذلك دفع روسيا إلى التفاوض بشروط جديدة، لكن ما تم فهمه بين السطور أن أميركا ستفعل ذلك كلّه، وهي تلف ساقاً على ساق شرق سورية، ولن تغير شيئاً من قواعد اللعبة وشروطها، كما لن تتطور أدواتها في هذا السياق، وجل ما يمكن أن تجود به هو إعادة تفعيل بعض أساليبها السابقة، والقائمة على تزويد بعض الفصائل، وليس كلها، بما يمكنها من مناوشة الروس والإيرانيين، بقدر لا يسمح لهم بإنجاز تحرير بلدتهم بشكل حاسم، ولا يسمح للخصوم بالقضاء على الفصائل دفعة واحدة .

هي عملية استنزاف لجميع اللاعبين بإدارة أميركية، وهو هدف جرى تطويره خلال إدارتي الرئيسين، باراك أوباما ودونالد ترامب، ويتناسب مع ظروف أميركا نفسها وإمكانياتها، مع الأخذ بالاعتبار التطورات الحاصلة في البيئة الدولية، وصعود قوى دولية وإقليمية، لها تأثيرات واضحة في بعض الأقاليم، لكنه لا يهتم، من بعيد أو قريب، بمشكلة الشعب السوري، بقدر ما يعتبرها فرصةً لتحقيق مقتضيات الاستنزاف .

تمثل سوريا، في التقدير الأميركي، جغرافياً مثالياً لاستنذاف روسيا، بنسختها الجديدة، بعد أن طورت أدواتها في إزعاج الغرب، وتقرب من التحول إلى ورشة تخريب متنقلة، تضع يدها على نقاط ضعفه، وتلسعها بطريق لا تترك دليلاً مباشراً على فعلتها، لكن المؤكد أنها تثير هيجاناً واسعاً في المجتمعات الغربية، إلى درجة تهديد أعمدة استقرارها، كما فعلت بأميركا بعد تدخلها في انتخاباتها الرئاسية، وتصويت "البريكست" الذي أخرج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي.

وإذا كان من غير المنطقي، ولا من الممكن، رد الصفعات الروسية بالطريقة نفسها لاختلاف المعطيات، وطبيعة النظام السياسي، واختلاف أدوات تواصله مع جمهوره، وإختلاف الثقافة الروسية عن مثيلاتها الغربية، وبما أن العقوبات الاقتصادية لم تُجد نفعاً، ولا هي أضعفـتـ التأثيرات الروسية في محـيـطـها، وما هو أبعد، فإن الاستنذاف هو الوصفـةـ الأكثر تلاؤماً وأكثر فعالية.

أما إيران، وبعد أن أكلـتـ الحـصادـ الأمـيرـكيـ فيـ العـرـاقـ، ونشرـتـ نـفـوذـهاـ إـلـىـ تـخـومـ إـسـرـائـيلـ، فـمـنـ الـمـفـهـومـ أـنـ تـسـعـىـ واـشـنـطـنـ، بـكـلـ قـوـتهاـ، إـلـىـ تـدـفـيعـهاـ ثـمـناـ يـجـعـلـهاـ غـيرـ قـادـرـةـ عـلـىـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ زـمـامـ الـأـمـورـ، لـيـسـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـمـذـكـورـةـ، بلـ فـيـ الدـاخـلـ الإـيـرـانـيـ نـفـسـهـ، وـلـيـسـ أـفـضـلـ مـنـ إـسـتـنـذـافـ قـدـرـاتـهاـ وـمـوـارـدـهاـ فـيـ صـرـاعـاتـ طـوـيـلـةـ الـأـمـدـ، وـلـأـفـقـ لـهـاـ، خـصـوصـاـ وـأـنـ أحـدـاثـ إـيـرـانـ أـخـيـراـ، وـحـالـةـ التـذـمـرـ الـتـيـ شـهـدـتـهاـ مـدـنـ إـيـرـانـيـةـ نـتـيـجـةـ سـوـءـ الـأـوضـاعـ الـإـقـتـصـادـيـ، سـتـدـفـعـ الـإـسـتـراتـيـجـيـيـنـ الـأـمـيرـكـيـيـنـ إـلـىـ التـرـكـيـزـ عـلـىـ هـذـهـ الـجـوـانـبـ، فـيـ صـرـاعـهـمـ مـعـ النـظـامـ الإـيـرـانـيـ.

وـتـنـطـوـيـ الـإـسـتـراتـيـجـيـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ عـلـىـ بـعـدـ صـيـنـيـ غـيرـ مـعـلـنـ، حـيـثـ تـتـقـدـمـ بـكـينـ بـخـطـىـ حـيـثـةـ صـوبـ إـنـجـازـ مـشـارـيعـ طـرـيقـ الـحـرـيرـ وـالـحـزـامـ، وـتـقـرـبـ مـنـ قـضـمـ الـشـرـقـ الـأـوـسـطـ مـنـ الـرـصـيدـ الـأـمـيرـكـيـ، وـطـيـهـ تـحـتـ نـفـوذـهاـ، بلـ وـبـدـأـتـ الـوـصـولـ إـلـىـ مـوـانـيـ أـوـرـوـبـاـ وـأـسـوـاقـهاـ. وـفـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ، تـطـرـحـ نـفـسـهـ بـدـيـلـاـ لـلـقـوـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ، وـتـرـفـضـ الـتـعـاـونـ مـعـهـاـ فـيـ آـسـيـاـ، وـأـمـامـ عـجـزـ واـشـنـطـنـ عـنـ إـخـضـاعـهـاـ لـشـرـوـطـهـاـ، فـأـضـعـفـ إـلـيـمـانـ هـوـ إـبـقاءـ الـشـرـقـ الـأـوـسـطـ، بـوـصـفـهـ نـقـطةـ الـوـصـلـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ أـوـرـوـبـاـ، مـلـهـبـاـ إـلـىـ حـينـ، وـبـيـئةـ غـيرـ صـالـحةـ، لـاـ مـدـ طـرـيقـ الـحـرـيرـ، وـلـاـ لـرـبـطـ مـوـانـئـ بـشـبـكـةـ الـمـوـانـئـ الـآـسـيـوـيـةـ الـأـوـرـوـبـيـةـ.

لـكـنـ كـيـفـ تـسـتـطـعـ أـمـيرـكـاـ تـأـديـبـ الـرـوـسـ، وـضـمـانـ اـنـكـافـ إـيـرـانـ، وـعـرـقـلـةـ التـمـددـ الـصـيـنـيـ، بـالـرـهـانـ فـقـطـ عـلـىـ لـحـ السـوـرـيـيـنـ، وـفـيـ مـوـاجـهـةـ خـرـيـطـةـ صـرـاعـاتـ عـالـمـيـةـ، وـقـوـىـ مـصـمـمـةـ عـلـىـ التـحـديـ، وـجـعـلـ سـوـرـيـةـ بـدـايـةـ لـاـنـطـلـاقـتـهاـ قـوـةـ وـاـزـنـةـ وـمـؤـثـرـةـ؟

صـحـيـحـ أـنـ السـوـرـيـيـنـ فـيـ مـوـاجـهـةـ حـرـبـ مـصـيـرـيـةـ تـتـعـدـىـ حـتـىـ مـجـرـدـ إـخـضـاعـهـمـ إـلـىـ إـلـغـاءـ وـجـودـهـمـ، لـكـنـ إـذـاـ كـانـتـ أـمـيرـكـاـ جـادـةـ، وـقـدـ تـقـاطـعـ مـصـالـحـ السـوـرـيـيـنـ مـعـهـاـ، يـجـبـ أـنـ تـكـوـنـ أـكـثـرـ جـرـأـةـ وـمـبـادـرـةـ، لـأـنـ تـمـنـحـ تـلـكـ الأـطـرافـ الـمـحـفـزـاتـ لـلـاـسـتـمـارـ بـسـيـاسـاتـهـاـ وـتـمـنـحـهـاـ الـغـطـاءـ لـلـقـيـامـ بـذـلـكـ، مـنـ دـوـنـ أـنـ تـقـدـمـ مـاـ يـنـسـابـ مـعـ هـذـاـ الـهـدـفـ؟

قدـ يـحـقـقـ تـرـاكـمـ الـاـسـتـنـذـافـ النـتـائـجـ الـمـرـغـوـيـةـ أـمـيرـكـيـاـ، لـكـنـ المؤـكـدـ أـنـ لـدـىـ رـوـسـيـاـ وـإـيـرـانـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ التـكـيفـ، عـلـىـ المـدىـ الـطـوـلـيـ، مـعـ الـأـضـرـارـ الـحـاـصـلـةـ وـمـعـالـجـةـ آـثـارـهـاـ مـعـ الزـمـنـ، طـالـمـاـ أـنـ لـاـ وـجـودـ لـرـأـيـ عامـ مـنـ الـمـمـكـنـ أـنـ يـثـورـ عـلـيـهـمـاـ، وـطـالـمـاـ لـدـيـهـمـاـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ الـالـتـفـافـ عـلـىـ خـسـائـرـهـمـ عـبـرـ اـسـتـغـلـالـ فـقـرـاءـ الـجـمـهـورـيـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ وـالـأـفـغـانـيـيـنـ وـالـبـاـكـسـتـانـيـيـنـ.

بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ ذـلـكـ، ثـبـتـ أـنـ لـدـىـ رـوـسـيـاـ وـإـيـرـانـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ تـغـيـيرـ الـوـقـائـعـ بـطـرـيـقـ عـنـيـفـةـ وـسـرـيـعـةـ، إـذـاـ لـمـ يـتـمـ رـدـعـهـمـ بـشـكـلـ مـباـشـرـ. وـبـالـتـالـيـ، إـنـ إـعادـةـ الـأـسـالـيـبـ نـفـسـهـاـ، وـبـالـاعـتمـادـ عـلـىـ الـأـدـوـاتـ الـقـدـيمـةـ، أـمـرـ غـيرـ مـجـدـ، إـذـاـ لـمـ يـقـرـنـ باـسـتـراتـيـجـيـةـ تـصـدـِّـ.

واضحة، لها موارد وخطط وأصناف جديدة من الأسلحة .

هل يملك السوريون رفض اليد الأميركيّة؟ وهل من المصلحة تضييع فرصة تحقيق الحد الأدنى من التوازن مع الطرف الآخر الذي يستشرس عليهم؟ ما هو متاح وممكّن الآن لإعادة هيكلة قوى الثورة، وإيجاد الإطار المناسب، وتحديد الأساليب والأدوات الالزامـة لتحقيق أهدافهم، فلا روسيا وإيران سيتركانهم، بعد أن تأكّدوا من أن الصراع مع أميركا واقع، ولا أميركا ستقدّم لهم ما يضمن الخلاص.

المصادر:

العربي الجديد